

نهاية بحار

« قصة من واقع الحياة في الكويت »

من أفواه أصحابه انتزاعاً ، لما يقوم به من أعمال باهرة في مجال عمله ، ولما يتصف به من صفة نادرة في مهنته ، فهو كما يقول أحد « النواخذة » عنه شعلة من النار ، لا يكاد الربان يلقي بأمر حتى تجده أول الملبين ، يواجه الأخطار دون خوف أو مبالاة ، تراه في أسوأ الأجواء يتسلق السارية دون ماوسيلة أو واسطة ، أو كما يقول البحارة في اصطلاحهم « صفق » ... كما إن الإنسان نادراً ما يراه جالساً بدون عمل ، فهو في أوقات فراغه تراه يتنقل في أنحاء السفينة يتفقد الناقص فيكملة ، أو التالف فيصلحه ، حتى إنه ليقوم بحلاقة لإخوانه حينما يكونون في عرض البحر ودارت عجلة الزمان وقلب الحظ « لأبي حمود » ظهر المجن ، والزمان غدار لا يعطي إلا لياخذ ، ولا يسعد إلا ليشقى ولا يرفع إلى السماكين إلا لينزل إلى الخضيض .

في إحدى الليالي المظلمة المتلبدة بالغيوم ، هبت عاصفة هوجاء ، هاج البحر من جرائها ، وقامت بينه وبين السفينة معركة ضروس طاحنة ، استعمل فيها البحر أمواجه من العيار الثقيل التي لا تبتقي ولا تذر ...

وفي هذا الخضم المتلاطم كادت العاصفة تودي بالسفينة التي كانت مسافرة إلى بومبي ... فاندفع الهواء في شراعيها بقوة وعنف ، وكان لزاماً أن ينزل بسرعة وإلا تعرضت السفينة لفرق محقق ، وكانت مجازفة من ذلك الشاب الجريء حين انطلق كالسهم إلى أعلى السارية ليقطع الحبل الذي يشبك الشراع فيها ، ونجت السفينة وركابها ، بعد أن كان الفرق أقرب إليهم من حبل الوريد . ولكن الشاب الذي خاطر بحياته في سبيل سفينته وإخوانه لم يعد إلى ظهر السفينة ، كما اعتاد إخوانه أن يروه ، بواسطة الحبل أو السارية ، ولكنه عاد عن طريق الهواء حيث قذفته العاصفة من ذلك الارتفاع الشاهق ، فانكسرت ساقه ...

وفي الصباح هدأت العاصفة وعاد كل شيء إلى طبيعته

كنا في « حديث الصباح » وكان النقاش يدور حول البحار الكويتي ، وما امتاز به من جرأة ونشاط ومثابرة على العمل ، وتطرق الحديث إلى ضرورة وجود قوانين تؤمن للبحار الكويتي مستقبله وتحفظ له حقوقه ، فذكرني هذا النقاش بقصة واقعية حدثني بها أحد أصحابي ، فرأيت أن أقدمها للقراء على سبيل المثال :

قال صاحبي :

كان « أبو حمود » شاباً قوى البنية ، فارح الطول ، مفتول العضلات ، يتيه على أقرانه — وحق له أن يتيه — بهذه النعمة التي أسبغها الله عليه ، والتي أصبحت مضرب المثل ، وحديث الناس ، فأنت لا تكاد تلمح أحدهم الدواوين ، التي تعتبر ندوة « للنواخذة » ، إلا ويتطرق إلى سمعك ذكر « أبي حمود » ، وما امتاز به من قوة وجلد ومثابرة على العمل ولا تكاد تدخل إحدى المقاهي المفضلة عند البحارة إلا وتجدهم يتندرون بأعماله وشدته ... لذلك لم يكن غريباً أن تجد الربان « النواخذة » ، يتسابقون إلى التعاقد معه والعمل على ضمه إلى بحارتهم ، ياغرائهم له بالمال تارة وبزيادة حصصه تارة أخرى ، حتى أصبح يتقاضى ضعف ما يتقاضاه أي بحار من أقرانه .

ولم تمض على « أبي حمود » فترة من الزمن حتى وصل إلى أرقى منصب في السفينة وهو « المجدمي » ، وأخذ المال يتدفق عليه من جميع الجهات ، وأخذ أصحاب السفن يتسابقون إلى ضمه إليهم كما يتسابق التجار إلى اقتناء بضاعة سهلة التصريف ، كثيرة الربح ...!

هكذا كانت حاله في تقدم مضطرد ، بل هكذا كان سعره — بتعبير أصح — يرتفع من حسن إلى أحسن ، وهكذا أخذ الحظ يمشي في ركابه ، حتى أصبح في حالة يحسده عليها الكثيرون ...

وعاش صاحبنا رديحاً من الزمن ينتزع كلمات الإعجاب

وأجريت لأبي حمود الإسعافات الأولية التي اعتاد البحارة أن يتخذوها في مثل هذه الحالات ...

إلى هنا والقصة عادية ، إذ ليس بمستغرب أن يفقد البحار ساقه أو ذراعه ، وفي بعض الأحيان حياته ، ولكن الغريب أن البحارة طلبوا من الربان أن يرسو بهم في أقرب ميناء ليتسنى لهم علاج صاحبهم في أحد المستشفيات ، ولكن الربان رفض أن يضيع وقته في ميناء ليس له فيه أى فائدة ! — ويحق له أن يرفض لأنه لا يوجد قانون يعاقب مثل هذا الرجل على مثل هذه الفعلة — واستمرت السفينة في طريقها إلى بومبي ...

وصلت السفينة بعد عشرة أيام ، وأنزل البحار إلى أحد المستشفيات . وقرر الطبيب بعد فحصه أن لافائدة من علاج الرجل الكسيرة ، فقطعت نتيجة لتصرف الربان الذي آثر الربح المادى على مستقبل بحاره .

ورجعت السفينة إلى الكوت فعاش أبو حمود عيش الكفاف ينفق مما جمعه في هذه المدة الطويلة حتى أتى عليه ، وعندما نفذ ما في جعبته اضطر إلى التماس المعونة من ربانه الذى كان سبباً فيما أصابه ، ولكن الربان الشهم رده معتذراً بقلة المال ورداءة المحصول ! . وهو الذى كان بالأمس يندق عليه المال دون ما حساب أو عد ، والذى كان يبدى له من شهور مضت ألواناً من العطف والتزلف والمجاملة ...

احتجب المسكين في بيته شهراً أو ما يقاربه ثم مات ، لالعة في جسده بل كدأ وقهراً ، وكلنا يعلم تمام العلم أن البحار الكويتي يفضل الموت على أن يعيش عالة على غيره ، بل قد يستنكر على نفسه أن يكسب عيشه من طريق غير طريق البحر ...

... وأظن أن القارئ العزيز ، يوافقني بعد قراءة هذه القصة الواقعية على ضرورة الاهتمام بحالة البحار الكويتي والعمل على وضع قانون للتأمين على مستقبله وحياته ، واجبار أصحاب السفن على دفع تعويض أو مكافأة في مثل هذه الحالات ، أسوة بجميع قوانين البحر المتبعة في الأمم المتقدمة لئلا تتكرر مثل هذه المأساة ؟

جاسم عبد العزيز القطامي

التائهون في الحياة

ليست مقومات الحياة حدودها المادية ، ولا تقاليد الجافة ، ولا مظاهرها البراقة ، ولكنها مثلها السامية وأهدافها العالية ... تلك المثل التي من أجلها نحيا وبها تتمزج أرواحنا ويتكيف سلوكنا ، فنشعر أننا نعيش لغاية تستحق أن نجهد في سبيلها وأن نضحى وأن نشقى ، وهذا الجهد وهذه التضحية وهذا الشقاء هو السر الذي يطهر نفوسنا ، فيجعلنا ندرك أننا لم نخلق عبثاً ، لأن هناك رسالة يجب أن نحققها قبل أن تطوينا الآجال وتغفى علينا الأيام .. هؤلاء هم البصرون الذين يسرون لغاية .. وإلى جانبهم قوم يخبطون في نبداء الحياة خبط عشواء ، تستهويهم كل ضجة ، وتخطف أبصارهم كل بارقة ، قترام يركضون حتى يجهدوا فإذا بهم في أول الطريق الذى بدأوا منه ، لأن غايات الحياة ليست واضحة أمام عيونهم أو لأن الغايات التي أمامهم أتفه من أن يستحقوا الحياة بين الناس من أجلها ...

هل تريد أن تعرف هؤلاء بعلامات فلا تخطئهم ؟
نهم السنة طويلة لاتصمد أمام الحجة ، وحماة دافقة لمفتقدها عند الأزمة ، وتمسك بالقشور ، واعتداد بالتوافه ، وعيش على أعراض الناس ، وأحياناً أموالهم بأحجاب البصائر : ليس المهم أن تجهدوا أنفسكم في الركض ، ولكن المهم أن تدركوا أنكم تركضون إلى غاية ؟ الكويت ت